الغراف

قسمه الأخير في القرن الماضي والحالي

[الاستاذ الكبير يعقوب سركيس باحث عرفه]
[الجيل وفهمه اعلام العرب وتتبع آثاره]
[الافذاذ بشوق وحرص . فالبيان تعرب]
[عن اعجابها واكبارها لشخصه متمنية دوام]
[الاستمرار في اتحاف قرائها بهذه الابحاث المفيدة]

كنت رأيت ان اكتب مقالا عنوانه « لواء السماوة ولواء العرجاء . وآل شبيب وآل سعدون في سنة ١١٣٩ هـ ١٧٢٦ م وما بعدها » ففعلت وهو معد للنشر « صفحاته ٢٤ بالقطع الكبير وبخط دقيق » ثم اوردت في آخر المقال نبذة عنوانها كما باعلاه » واتفق ان اطلع عليها الصديق الدكتور احمد سوسة فطلب مني الا ارجىء نشرها الى حين . فهل لي الا اجيبه وموضوع كلامي له صله بالبحوث الثمينة التي يطرقها في تآليفه العديدة في مشاريع الري النافعة بعد دراسة كل مشروع دراسة عميقة ؟ كلا اني لنازل عند رغبة من لا يكل ولا يمل من التصنيف في اختصاصه انه نسيج وحده بيننا . وفي ما يلي النبذة مع ابقائي لمستهلها كما انها ملحقة بالمقال :

.. استفدت مما مر بنا من الكتب المخطوطة والمطبوعة والوثائق الخطية ومما روي لي فضلا عما عرفته بنفسي ما جعلني اكتب هذا المقال . ولاسطرن ما يلي لمن لا اطلاع له على ما سيأتي ولا سيما للأجيال المقبلة .

ـ : من المعلوم ان الغراف كان يجري فيه الماء خلال بضعة اشهر من السنة فحسب وليس في السنة كلها « وراجع » كتاب ريج المقيم البريطاني ٢ : ٣٨٨ ، وان مياهه كانت تتجه في القرن الماضي وتتجه اليوم نحو الفرات ومياهه بثلاثة فروع اولها : البدعة « هي التي مياهها تتصل بمياه الفرات ليس به مباشرة » وصدرها فوق الشطرة بينها وبين الرفاعي ، وثانيها شط الازيرج وثالثها شط الابراهيم اللذين صدراهما تحت الشطره عند قبة تزار اسمها « الحمزة » وهي في نحو منتصف المسافة التي بين الشطره والناصرية . وهكذا كان امر هذه المجاري يوم قدمت الى ذلك القطر لاول مره لزيارة والدي في الشطره في خريف سنة ١٨٩١ في عطلة المدرسة وانا يافع . وكنت سمعت بعد ذلك ان ناصر باشا آل سعدون في متصرفيته في المنتفق (اولها في ١٣ آب ١٨٦٩ وآخرها في ٢١ كانون الثاني ١٨٧٤) كان جاء من الناصرية الى الشطرة بياخرة من بواخر الحكومه (١) وذلك بطريق شط الازيرج ثم عقبه بعد حين بهذا الطريق كذلك باحدى هذه البواخر المتصرف قدري باشا واخيرا محمد باشا بابان المعروف بين الناس احيانا بخديو محمد باشا في متصرفيته في هذا اللواء التي كان اولها في سنة ١٢٩٨ (راجع بشأن تعيينه هذا جريدة الزوراء في عددها المؤرخ في ٢ جمادي الآخره ١٢٩٨ هجرية ٢ ايار ١٨٨٠ م) . وكان قسم الغراف الذي عليه الشطرة « ويسمى اليوم شط الشطرة » قد ابتدأ اندراسه قبل حين ثم ازداد الاندراس في الربع الاخير من القرن الماضي للعيلاد (٢) لكنه لم يصل الى درجة تؤدي الى انقطاع الجريان في شط الازيرج وشط الابراهيم المنشعبين من هذا القسم فانها كانا يجريان متصلين بالفرات حتى سنة ١٩٠٠ فاني وصلت

---

[١] ذكرت سالنامة (تقويم سنوي) بغداد لسنة ١٢٩٤ هجرية ١٨٨٧ ميلادية ادارة حكومية اسمها [ادارة عيان العثماني] وذكرت اسماء موظفيها لكنها ذكرت اسماء بواخر هذه الادارة مع بيان قوة كل منها بعنوان « بواخر الادارة النهرية » هذا مع ان من هذه البواخر ما كان يجريا كالباخرة المسماة ـ نجد ـ « كما كنت عرفته » وقوتها ١٥٠ حصاناً ومنها ما هو نهري كالباخرة ـ موصل ـ وقوتها ٨٠ حصاناً » وهما اكبر البواخر البحرية والنهرية كما في السالنامه ..

[٢] كنت رأيت في ايامي الاولى في الشطره هذا القسم من النهر عريضا فقد كانت من عقيقه يوم ذاك ارض الجامع الذي بنته (على هذه الارض) دائرة الاملاك السنية للسلطان عبد الحميد وما في شمالها وجنوبها كما اني ادركت في ذلك العهد وبعده (جنبة) (منفقا) في عقيق النهر تلاصق الضفة الغربية ـ

في ربيعها من الشطرة الى الناصرية نهراً بطريق شط الازيرج ثم بجدول منه اسمه (ام جمل) وبعده بفيزه اسمه السديناوية ثم كان انقطاع وصول مياه هذين الفرعين — شط الازيرج وشط الابواهيم — الى الفرات فى سنة ١٩٠١ المسماة بسنة الكومة « القومة » . فهاجر زراع الاراضي الواقعة بين الشطرة والناصريـة بل زراع الغراف جميعهم — إلا زراع البدعـة — قاصدين الفرات ودجلة ومياههما لفقدان الغلة زد على طامتهم هذه نفوق مواشيهم . وسبب ذلك قلة مياه دجلة ففرعه الغراف وانحباس المطر ثم عاد زراع الغراف الى اراضيهم في اوائل سنة ١٩٠٢ لما بلغهم من ارتفاع المياه فيه بحيث يسعهم ان يزرعوا الدخن فزرعوه وزكا اي زكاء ، اما الشعير والحنطة فلم يكن لهما اثر . سبق القول ان زراع اراضي البدعـة لم يهاجروا وما سبب ذلك إلا انخفاض اراضيها فكان الماء الذي يجري فيها مع قلته يكفي الى درجة اسقاء مزارعها .

ذكرت باعـلاه عودة زراع الغراف الى اراضيهم في تلك السنة واستثني من هؤلاء عشيرة الازيرج وعشيرة الابراهيم ، فانهما لم يرجعا فيها لاستمرار انقطاع المـاء عن شطيهما ثم عاد بعضهم اخيراً مستفيداً من مياه الفرات . اما ما كان فوق هذين الفرعين حتى صدر البدعة وان كان الماء لم ينقطع عنه بتـاتاً ، انما كان يصله في الخنياب [١] حسب ، وهكذا ابتليت الشطرة بنقص من الماء فغدا اهلها يفكرون قبيل سنة ١٩١٤م في نقل حاضرتهم الى صدر البدعـة كما كان قـد نقل والدي الشطره القديمـة التى كانت على الجـدول المسمى

ـ وهي تنتهي عند شمال الشطره حيث تقيم جماعة عشيرة البو شمخي . ان ماء هذه « الجنبة » كان لا ينضب في القيظ والخريف وكذلك كنت ارى في جنوب الشطره « جنبة » اخرى كذلك تلاصق الضفة الغربية التى عليها القبة التى تزار المعروفة بالعباس وكنت اسمع من يقول انه كان من يقدم من الشطرة القديمـة الى شطرة يومنا هذا وانحائها في القيظ في منتصف النهار فيحفر حفرة يقيل فيها متبردا . واسم هذه الحفره عندهم (شودان) :

ولا بد من ان الكلمة فارسية فان (شو) فعل معناه غسل و(دان) هنا ظرف مكان فيكون معنى الكلمـة مغسل او مغتسل . والمناسبة موجودة لقرب الموضع من النهر ولاسيما لاحتمال ان القائل كان يغتسل هناك قبل النوم او بعده .

[١] الخنياب عند الغرافيين وغيرهم الفيضان العالي كما كنا نقول ويقول بعضنا الان في بغداد « الحيال » ونشتق من الكلمة فعل — حيّل — اذا ما وصلت مياه دجلة حداً معلوما من الارتفاع . وهم يشتقون من (خنياب) فعل « خنيب » وكلة خنياب وردت فى دوحة الوزراء في اخبار سنة ١٢٣١ هجرية ١٨١٨ ميلادية « الص ٣٢٠ الترقيم لي » ولاشك في انها تحريف خون آب « الكلمتين الفارسيتين » ومعنى خون — دم — وآب — ماء — قالوا هذا لتلون الماء بغريته الاحمر . وتذكرني كلمة خنياب بكلمة « طنكاب » وهي ضـد الخنياب وقد استعملها الصابئ بكتابه تاريخ الوزراء « الص ٢٥٦ » . وهي كذلك من الفارسيّة فان لفظة « تنگ » معناها : — ضيق ، عسر ، قلة — وما ضاهى ذلك . ونحن نقول الان — ضيهود — ومثلنا يقول الغرافيون وغيرهم . وقـد خطر على بالي كون الكلمة ارمية فسألت احد عارفي الكلدانية فقال « صهيا » تعني عطشان فتكون كلمتنا صيهود مشتقة من هذه الكلمة . وقد كنت سمعت ان بعض زراع مياه الفرات يسمون احيانا الغراف بـ (شط الاحمر) لاحمرار لون مائه .

ولعل « مشخاب » فى لواء الديوانية كذلك فارسية ومثله « زكلاب » في ناحية قلعة سكر في الجانب الغربي من الغراف في الاراضي المقابلة لها وصدره ليس من الغراف بل هو يأخذ ماءه من هور الركيوة حينما تغمر بالمـاء لتطييب ارضها . قلت فوبق هذا لعل كلة مشخاب فارسية واقول الان قـد يكون هذا تحريفا لمشكاب فان المشك يراد به — المسك — فكأنهم ارادوا ان يسمى النهر « الماء المعطر بالمسك » كما انه يجوز ان يكون مصدراً لكلمة : شخب ، فقد جاء في اقرب الموارد : شخب اللبن حلبه وشخب اللبن وغيره : سال وشخب اوداج القتيل دما : قطعها فسالت اه . فيجوز ان النهر سمي مشخابا لسيل الماء فيه . اذكر كلا من هذين الرأيين بتحفظ غير مرجح هذا على ذاك .

« الخليلية » [١] الى الشطرة الحالية في سنة ١٢٩٠هـ ١٨٧٣م وعندي من الوثائق ما يذكر كشبثه في النقل منها كتاب من « ولد » افندي مدير تلك الشطرة القديمة يخاطب فيه والدي في امر النقل وهو بالتركية وتاريخه في ١٧ مارت ١٢٨٨ ٢٩ آذار ١٨٧١ م = ١٣ ذي الحجة ١٢٨٩ هـ ثم كان النقل لوالدي . وقد روى لي غير واحد من اهل الشطره ان نقلها ارخ بكلمة « غصر » ١٢٩٠ وهي كلة لا معنى لها فالظاهر ان واضعها اراد ان يحفظ تاريخ هذا النقل بكلمة واحده كسبيلا لحفظها وان لا تفيد معنى .

وبينما ابتدأ اهالي الشطرة يرتأون ذلك الرأي في الانتقال قبيل سنة ١٩١٤ كما سبق القول قامت فيها الحرب العامة وكان الاحتلال البريطاني للعراق فشرعت السلطنة في حفر شط الشطرة لطهيرا له فصار الماء يجري عندها في مدة تزيد على ما كانت قبل ذلك فارتاح الناس الى درجة ثم كان بناء نظم البدعة وناظم شط الشطره فتحسنت حالة هذه الحاضره والمزارع التي تحتها واخيرا انشيء سد الكوت فعادت احوال الغراف كله حتى الفرات الى ما كانت عليه من حسن الحال واكثر بكثير جدا . وصب الله شآبيب الرحمة على الملك فيصل المعظم الذي غرسنة بالغراف قبل زرعها وضرعها فعزت عليه الحال الاليمة فقال لا مشروع قبل الغراف ، اراد بذلك ، انشاء سد الكوت ونواظم الغراف وقد انشيء هذا السد بعد وفاته . تغمده الله برحمته الواسعة .

عرفنا قلة مياه شط الشطره فانقطاع الماء عن فرعيه « شط الازبرج وشط الابراهيم » وان كان ذلك بصورة تدريجية وابين الان ـ على ما ارتأي ـ السبب وهو يرتقي الى اوائل القرن الماضي للميلاد او قبيلها ذلك باحداث الجدول المسمى « (البدعة) الذي غدا يتوسع لانخفاض الاراضي التي يجري فيها واليها حتى اصبح يبتلع معظم المياه . والظاهر ان البدعة لم تكن بعد احداثها بزمن معروفة باسم البدعة بالتعريف من دون نسبتها الى من اوجدها بدليل اني لقيت والدي يقول في نسخ مكاتيبه الى اصحابه في سنة ١٢٧٣ هـ ٥٧ / ١٨٥٦ م وهو في اراضي البدعة « من بدعة المحمد » والمعروف على ما كنت سمعته ان امير ربيعة كان اهدى اراضي هذا الجدول او بعضها الى احد آل سعدون وكنت ظننته انه الشيخ عيسى [١] المحمد الثامر آل سعدون فحفر هذا النهر ثم توسع لانخفاض الاراضي التي يجري فيها واليها فغدت تقل المياه شيئاً فشيئاً عند الشطره ففي شط الازبرج وشط الابراهيم فاصبح زراعها مضطرين الى انشاء سكور موقتة فيها ليرتفع الماء لاسقاء اراضيهم فبدأ الترسب في هذين الشطين وكلما ازداد الترسب زيد عدد السكور وفي اوقات اكثر من ذي قبل فارتفعت الأعقة فغدا الماء لا يرقاها فانقطع الماء من الجريان بتاتا في الشطين المذكورين . اما الآن فهما على احسن حال كما سبق القول . وغدا شرب اهل الشطرة من النهر خلال السنة كلها خلافا لما كانت عليه .

قلت باعلاه ما كنت سمعته ان الذي احدث البدعة هو الشيخ عيسى المحمد ـ على ما كنت اظن ـ ، وذكرت الابر في لغة العرب « ٢ (١٣ / ١٩١٢) ٢٣ » ذلك قبل ان اقف على نسخ مكاتيب والدي ويبدو لي الآن من تعبيره « بدعة آل محمد » ترجيح احداثها الى الشيخ محمد والد عيسى لنسبتها الى « آل محمد » وكانت وفاة الشيخ محمد قبل وفاة اخيه حمود «٣» على ما كان يلقبني من اناس اعدهم ثقاة ومما استخرجته من كتاب انسورت واذ كان الشيخ محمد متوفى قبل وفاة اخيه حمود «٣» على ما سبق القول يكون احداثه للبدعة قبل سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م فيكون ايجادها في اوائل القرن الماضي للميلاد او في اواخر القرن السابق له .

ولي ان اضيف الى ما اوردته بشأن مجرى الغراف من صدر البدعة الى نحو منتصف المسافة التي بينه وبين الشطره انه قد غير بعد الاحتلال ، فقد عوض هذا القسم باحداث مجرى في غربه لغرض فني ، ومنع الماء من الجريان في عقيق المجرى

[١] الشطرة القديمة في الجنوب الغربي لشطرة يومنا هذا والمسافة بينهما نحو كيلو مترين .

«١» تاريخ وفاته محفوظ بجملة الشيخ حريق ١٢٥٩ هـ ١٨٤٣ م .

«٢» توفي في اواخر سنة ١٢٤٦ هـ ٣١ / ١٨٣٠ م بالطاعون في الجانب الغربي من بغداد في تل اسود او بقربه ومدفنه هناك وهو معروف بقبر حمود ، وتل اسود بعده عن جسر الملك فيصل باربعة عشر كيلومترا بخط مستقيم . «٣» جاء في رحلة هود ـ

الى التي هناك

بقلم الاستاذ محمد محمد الحوفي

سمعت تراتيل الحب مني ، منذ كنت بنت العاشرة .. وقرأت تباريح الجوى عني ، قبل ان تفهمي انك الساحرة .

لم تكوني تستجيبين لنجواي ! لا كما تستجيب العصفورة الصغيرة لناديها عصفورها الفتي فتناغيه — محتجزة في عشها — بوثبها وترجم له بتغريدة ساذجة عن حبها .

وظللت اصبر قلبي ، واهدهد حبي ، حتى صرت خلقاً سويا وقلبا وفيا ، وعاطفة مشبوبة ومن هـذا الحين كانت نظراتك كلمات ، وبسمانك موحيات ، واحمرار خديك آية .

ميزة حبنا انه مطبوع بالوحدانية ، لم يشبه شرك منذ ميلاده فكنت انت اول وآخر حظنا من الحب ، وكنت انا الدنيا لديك منذ نشأتك الباكرة .

ومرت سنوات التلهذة في فوز محسود ، لك انت فضله فما اذكر اني استعنت في كفاحي بغير حبك ، ولا رجوت من سعي شيئاً بعد قربك .

والعجب انى كنت بين المبرزين ، مع ما عانيته طوال سنواتي من نوى محرق ، وهم مقلق حتى في ايام الامتحان نفسها لم اكن اعفى نفسي من ذكراك ، ولمجل لقياك .

ولم اكد انتهي من دراستي حتى جعلت عقد القران بك اول الفتح ، واساس الصرح ، فهاج هذا دفائن من تعرفين ، وحطم علالة الآملين .

وعجب كثيرون : كيف لوى وجهه عن القمرة ، وفيها من الحسان ما يقطع الانفاس وكيف اصطفى فلانة الريفية وبينها في الثقافة ابوان .

واما الاقلون — وهم يفهمون — فقالوا : فتى مشغوف . اكتوى قلبه بالنار ، فداس من اجله كل اعتبار . بصير : لا تخدعه تزاويق الحضارة المأفونة ، مجرب : عاين عن كثب مهازل زوجات يزعمن انهن متحضرات متعلمات ، فآمن ان حبيبته القروية هي الزوجة الحصان ، وخليلة الزمان ، والام الرشيدة .

فتى يحترم القربى ، ويدين بأن فتاة من بنات عمومته تيمها وتيمته : اولى بأن تكون سكنه ، واهل لان تشاركه خيراته ومحنه .

اسمعي يا سلوى ! قالت لي مرة شخصية ترأسني : ولم لم تصطف لنفسك عروسا واسعة الثراء لعوبا بالذهب ؟! فكانت ردى عليه : ومن قال لك : اني اقنى الابقار ؟ !!

اعجب لهؤلاء الناس من أي طينة خلقوا ، وبأي عقول رزقوا !! ويل للقوارير النواعم من السباع الجياع !!

والى اللقاء في عدد قادم ياجنة قلبي وسمعي وبصري ؟

القاهرة — محمد محمد الحوفي

القديم الذي كان عليه قبة يقال لها « غشة » ، كما غير المجرى الجزء من هذا القسم في اثر الشطرة ، محولا الى جهة الشرق ثم الى جهة الغرب ، فاصبحت قبة العباس في شرق المجرى . وهذا التغيير هو كذلك لغرض فني « وراجع القسم المؤرخ في آذار ١٩١٩ من خارطة مسح الغراف » ، قلت هـذا كله للتاريخ ولاسيما اني سألت رئيسا معروفا يسكن هو وعشيرته ارضا من اراضي البدعة عمن ينسب اليه احداثها فاظهر جهله للامر : إن تدويني هذا تبعاً لمن قال : زرعوا فا كلنا نزرع فيأكلون .

بغداد — يعقوب سركيس

البريطاني [ص ٣٤/١٢٥ من الترجمة الفرنسية] انه مر في اواخر كانون الثاني ١٨١٧ بمضرب خيام الشيخ محمود اخي الشيخ حمود وله كلام عليه ان هذا الاسم مغلوط فيه صحيحه محمد لانه ليس بين اخوة الشيخ حمود من اسمه محمود على ما هو معروف عند آل سعدون وغيرهم . ومحمد هذا هو والد الشيخ عجيل كما مر باعلاه . وبالنظر الى ماجاء في هذه الرحلة تكون وفاة الشيخ محمد بعد التاريخ المذكور فيها بمدة لا اعرف مقدارها .